الفصل الثاني

موقف الدولة من الأجانب في مصر

- **الحقوق والواجبات المفروضة على الأجانب الأوربيين.**
- **موقف السلطات الحاكمة من الأجانب المقيمين إزاء أعمال القرصنة الأوروبية .**
- **إجراءات الدولة في معاملة السفن الأجنبية الوافدة للموانئ المصرية.**
- **فئات الأسرى الأجانب وموقف الدولة تجاههم** (مصادر الحصول على الأسرى الأجانب – معاملة الدولة للأسرى – موقف الدولة تجاههم).
- **فئات الرقيق وموقف الدولة تجاههم** (فئات الرقيق وأنواعه – الاعتماد على الرقيق في المجتمع المصري – أسواق الرقيق بنوعيه – أسعارهم).
- **موقف الدولة من الجواسيس الأجانب.**

الحقوق والواجبات المفروضة على الأجانب

أقام الأجانب في مصر في العصر المملوكي إقامة دائمة أو إقامة مؤقتة نتيجة لظروف وعوامل متعددة قد أوضحتها في الفصل السابق، ولذا يجب أن أوضح الحقوق والواجبات التي كانت مفروضة على الأجانب بصفة عامة سواء كانوا تجارًا أم سفراء أم رحالة أم حجاج ورهبان وكذلك جميع الجنسيات الوافدة.

كان التجار الأجانب في وضع متميز عن بقية الطوائف الأخرى لأنهم كانوا يقومون بعمليات النقل التجاري، ولذا كانوا يقيمون في المدن والثغور المصرية لفترات طويلة نسبيا وقد منحتهم الدولة المملوكية حقوق هامة وفرضت عليهم واجبات والتزامات معينة وذلك حرصا من السلطات المملوكية على حماية التجار الأجانب الوافدين في الداخل أو في الخارج، وليس أدل على ذلك مما أورده المؤرخ عز الدين بن شداد في رسالة الظاهر بيبرس إلى الملك الأرمنى قائلا له "لو تعرضت للتجار في شيء يساوى درهمًا أخذتك عوضًا عنهم" [١٦٩]. وذلك لأنه قد أسر بعض التجار الأجانب القادمين إلى مصر عبر أراضى بلاده. كما عملت الدولة على حماية التجار الأجانب في الداخل حيث نصت المراسيم والمواثيق السلطانية على توفير الأمن للأجنبي في الميناء وفي البلاد وإنذار بالعقاب الشديد لمن يتعرض لهم بالأذى[١٧٠].

ولذا سوف نعرض لبعض الحقوق المهمة للتجار الوافدين إلى مصر :-

١- من حق الأجنبي مغادرة البلاد ثم العودة خلال السنة التجارية ومدتها عشرة شهور بدون دفع رسوم جديدة[١٧١].

([١٦٩]) عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد، تاريخ الملك الظاهر بيبرس (تحقيق أحمد حطيط، نشر فرانز شتاير بفيستان، ١٩٨٣م)، ص ٣٠٦؛ قطب الدين موسى اليونينى، ذيل مرآة الزمان (تحقيق لى كيو، حيدر آباد، ١٩٦١م)، ج٣، ص ٢٥٤.

([١٧٠]) محيى الدين ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م)، ص ١٦٠ – ١٦٢؛ الكاتب العسقلاني شافع بن على، الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٧٤.

([١٧١]) حياة ناصر الحجى، العلاقات بين المماليك وأسبانيا النصرانية (الكويت، ١٩٨٠م)، ص ٣٥٠.

٢- تأمين التجار والمسافرين والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى على أموالهم وأرواحهم[١٧٢].

٣- لا يجوز لأي شخص التعرض للأجنبي ولا لتجارته ولا لسفنه ولا يطالبه برسوم أكثر من اللازم[١٧٣].

٤- ولا يحق للسلطات المملوكية أن تحصل على ضرائب أو رسوم جمركية إلا بعد تفريغ السلع ووزنها في الميناء، وإذا لم تباع فله حق إعادتها للسفينة ولا يدفع عنها الرسوم[١٧٤].

٥- كما أعفتهم من الرسوم المفروضة على السلع الخاصة بالفندق مثل الجبن والخمور والأطعمة والأمتعة الشخصية[١٧٥].

٦- وعدم إجبارهم على البيع والشراء والحرية التامة في جميع المعاملات [١٧٦].

٧- وإذا أدين تاجرًا أجنبي بدين إلى تاجر مصري لا يلزم أحد من جاليته بدفعه إلا إذا كان ضامنًا له أو محصلًا أو مودعًا[١٧٧].

٨- وإذا استأجر أحد من المسلمين مراكب أجنبية فله الحق أخذ رهائن وإذا حدث ضرر أو غدر كان الملزم هو الضامن ولا يلزم بها أحد من الرعايا الأجانب [١٧٨].

([١٧٢]) شهاب الدين بن أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (دار الكتب المصرية، ١٩١٩م)، ج١٤، ص ٣٧.

([١٧٣]) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تاريخ الدول والملوك (تحقيق قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢م)، ج٧، ص ٢٣٠.

([١٧٤])نعيم زكى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين االشرق والغرب (الهيئة العامة، ١٩٧٣م)،ص ٤٤٥.

([١٧٥]) عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب (دار النهضة، ١٩٨٣م)، ص ٢٨٦.

([١٧٦]) الطاهر أحمد مكى " معاهدة تجارية من القرن ١٥م "،(المجلة، العدد ٤٥، سبتمبر ١٩٦٠م)،ص ٥٦.

([١٧٧]) محمد محمد أمين، "معاهدة تجارية بين مصر والبندقية "،(ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، ١٩٨٥م)، ص ٣١٩.

([١٧٨]) الطاهر مكى، المرجع السابق، ص ٥٨.

٩- يحق للأجنبي دفع رسوم السمسرة والترجمة مرة واحدة فقط [١٧٩].

١٠- كما سمحت السلطات المملوكية للتاجر الأجنبي أن يؤجل سداد ضرائبه وتسجل في دفاتر الديوان حتى يتم سدادها [١٨٠].

١١- وعندما تقترض الدولة من الأجنبي قرضا يقوم ديوان الخمس بخصم هذا القرض من الضرائب المقررة على الأجنبي [١٨١].

١٢- سمحت للسفن الأجنبية الالتجاء للموانئ المصرية في حالة انكسارها أو تعرضها للخطر ويجوز إصلاحها وإفراغ حمولتها دون دفع رسوم لذلك [١٨٢].

كما أعطت السلطات المملوكية حقوق أخرى لبقية الطوائف الأجنبية المقيمة بمصر منها :-

أ – في حالة وقوع خلاف بين الأجانب فمن حق القنصل وحدة التدخل لحل هذا الخلاف ولا يسمح للسلطات المحلية التدخل فيه [١٨٣].

ب – أما إذا حدث خلاف بين أجنبي ووطني فيمكن اللجوء إلى القضاء المصري وإذا لم يقتنع أحد الطرفين بالحكم فله حق رفع شكواه لسلطان [١٨٤].

ج – وفي حالة وفاة أحد الأجانب في الديار المصرية فمن حق القنصل التصرف في أموال المتوفى[١٨٥].

د – يحق للأجانب الإقامة في فنادق خاصة بهم، وهم مسئولون عن إدارتها وخصص لكل جالية فندق للسكن وللإقامة [١٨٦].

أما فيما يتعلق بالواجبات المفروضة على التجار فإنهم كانوا يخضعون لقواعد

([١٧٩]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٤٤٨.

([١٨٠]) عفاف سيد صبرة، المرجع السابق، ص ١٤٤.

([١٨١]) عمر كمال توفيق، مجتمع الإسكندرية عبر العصور (الإسكندرية، ١٩٧٥م)، ص ٣٠٢.

([١٨٢]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٥٨؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ١٦٠.

([١٨٣]) الطاهر أحمد مكى، المرجع السابق، ص ٥٧.

([١٨٤]) الطاهر أحمد مكى، المرجع السابق، ص ٥٨.

([١٨٥]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٥٩؛ محمد محمد أمين، المرجع السابق، ص ٣٠٨.

([١٨٦]) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى (ترجمة أحمد رضا، عز الدين فودة، الهيئة العامة، ١٩٩١م)، ج٣، ص ٣٠٤.

محددة التزموا بها، منها أنهم كانوا يأتون في فترة محددة في السنة وبالتحديد في شهر سبتمبر ويناير، وهى مواعيد وصول التوابل إلى الأسواق المصرية، وتسمى هذه الفترة "فترة المدة" وهى الفترة التي يسمح لهم فيها بالتحميل والشحن في الميناء، والانتهاء من أعمال البيع والشراء، وتصل هذه المدة إلى مائة يوم أو يزيد وفي حالة وصول السفن الأجنبية قبل المدة ولا تجد مطلبها فعليها الانتظار في الميناء حتى تصل السلع المطلوبة [١٨٧].

بالإضافة إلى قواعد أخرى فرضت على جميع الأجانب وخاصة الأوربيين وأهمها : ألا يتجول الأجنبي في المدن المصرية بحرية تامة وعدم السفر ناحية الجنوب أو الاتجاه نحو البحر الأحمر شرقا، وذلك خوفًا من اتصالهم بالحبشة المسيحية مما يؤدى إلى تعاون عسكري مشترك ضد الدولة المملوكية[١٨٨]، حيث حاولت البابوية إرسال سفارات متعددة إلى ملك الحبشة لحثه على المشاركة في محاربة المسلمين، وكذلك حاولت بعض الدول الأجنبية تجديد هذه الرغبة طوال العصر المملوكي [١٨٩]، أو خوفًا من الوصول إلى بلاد الهند والشرق الأقصى حيث كانت الدولة المملوكية هي المتحكم الأساسي في تجارة الهند ولا تسمح بتدخل خارجي فيها [١٩٠].

ولذلك كانت الدولة تقوم في بعض الأحيان بتحديد مدة إقامة الأجانب في

([١٨٧]) شارل ديل، جمهورية البندقية جمهورية أرستقراطية (ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، توفيق اسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م)، ص ٢٨ ـ٢٩؛ سمير الخادم، الشرق الإسلامى والغرب المسيحى عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقى البحر المتوسط (بيروت، ١٩٨٩م)، ص ٤٥؛ نعيم ذكى، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

([١٨٨]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٧؛

Ziada , foreign relations of Egypt in the 15 century (Liver pool , 1930) , P.216; Kammer , Le Regime et le status des etrangeres on Egypte , (Le caire , 1929) P.23..

([١٨٩]) سعيد عاشور، الحركة الصليبية (الأنجلو المصرية، ١٩٦٣ م)، ج٢، ص ١٢٠٩ – ١٢١٤.

([١٩٠]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٧ – ٣٠٨؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيراتها (ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٠م)، ص ١٦٥.

مصر بثلاثة شهور أو ستة شهور فقط بحيث لا تزيد عن العام، وذلك تجنبا للمخاطر الناتجة عن تواجدهم في البلاد[١٩١]، ويعود ذلك إلى توتر العلاقات بين الدولة المملوكية وبعض الدول الأجنبية في بعض الأوقات نتيجة للحروب والمعارك الدائرة بين الطرفين أو نتيجة لأعمال القرصنة التي يقوم بها بعض الحاقدين على مصر فيقومون بالإغارة على السواحل المصرية والشامية أو بالسطو على السفن الإسلامية في حوض البحر المتوسط؛ ولذا كانت الدولة المملوكية في شك دائم من الأجانب الوافدين وكثيرا ما تعرضوا لعمليات الطرد ومصادرة الأموال والبضائع من قبل السلطات الحاكمة.

موقف السلطات الحاكمة من الأجانب المقيمين إزاء أعمال القرصنة الأوروبية.

حاولت البابوية العمل على عودة الصليبين إلى بلاد الشام بعد سقوط عكا ولكنها فشلت في تحقيق ذلك؛ ولذا قررت التصدي للدولة المملوكية من الناحية الاقتصادية وحرمان مصر من مصدر قوتها المادية والبشرية وهى التجارة الخارجية فأصدرت قراراً بمنع التجارة مع الدولة المملوكية ولكن هذه الخطة لم يقدر لها النجاح أمام المصالح التجارية الأوربية؛ ولذا نشطت أعمال القرصنة والنهب والتخريب للموانئ المصرية والشامية لتجعلها غير آمنة لنزول التجار الأجانب، ولا شك أن هذه الغارات كان لها الأثر السيئ على الجاليات الأجنبية الأوربية بمصر من جانب السلطات المملوكية.

أكدت المصادر المعاصرة أن هؤلاء الأجانب كانوا بمثابة رهينة لدى السلطات الحاكمة فإذا حدث ما يسيء الإسلام والمسلمين من طائفة منهم كانت الدولة تقتص من المقيمين بأراضيها[١٩٢] وذلك بالقبض عليهم ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم وتطالبهم

([١٩١]) أحمد دراج، العلاقات بين المماليك والفرنج في القرن ٩هـ / ١٥ م (دار الفكر العربى، ١٩٦١م)، ص ٢٨؛ عبد العزيز عبد الدايم، " الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك "، (ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، ١٩٨٥م)، ص ٢١٠، Ziada , op. cit , P. 227

([١٩٢]) غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (صححه بولس راويس، باريس ١٨٩٤م)، ص ٤١.

بدفع تعويضات للتجار المسلمين الذين نهبت أموالهم في الميناء أو في البحر[١٩٣].

ففي عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م هاجم اثنا عشر مركبا للقراصنة ميناء الإسكندرية فأمر الظاهر بيبرس بحبس كل الأجانب المقيمين في المدينة وقتلهم، كما أمر بعدم فتح الحوانيت بعد المغرب ومنع إشعال النيران[١٩٤]. وفي عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م أثناء هجوم القبارصة على الإسكندرية قام الأمير جنغرا بالقبض على خمسين تاجرا أجنبيا في المدينة، وحبسهم في سجن دمنهور [١٩٥]. كما أمر الأشرف شعبان بإنزال العقاب الجماعي على كل الأجانب الأوربيين المقيمين بمصر وسجنهم، وصادر أموالهم ومتاجرهم لافتداء أسرى الإسكندرية[١٩٦].

توالت أعمال القراصنة على السفن الإسلامية في البحر المتوسط مثلما حدث في عام ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م عندما هاجموا مراكب مصرية قادمة من الشام بها أقارب السلطان برقوق فأمر بالقبض على الأجانب المقيمين وقناصلهم بمصر والشام [١٩٧].

([١٩٣]) صبحى لبيب، " الفندق ظاهرة سياسية و قانونية واقتصادية " (ندوة مص وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، ١٩٨٥م)، ص ٢٩٩؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (دار النهضة، ١٩٦٢م)، ص ٦٥، Deepeing , op.cit , p.79

([١٩٤]) جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية، ١٩٣٨م)، ج٧، ص ١٤٩؛ أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر (ج٨، الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م)، ص ١٤٤.

([١٩٥]) محمد بن قاسم بن محمد النويرى السكندري، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية (تحقيق إيتن كومب، عزيز سوريال، حيدر آباد، ١٩٧٠م)، ج٢، ص ١٥٦.

([١٩٦]) تقي الدين أحمد بن على المقريزي، االسلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م)، ج٣، ق١، ص ١٠٧؛ حسين النحال، الحروب الصليبية المتأخرة (دكتوراه غير منشورة،آداب عين شمس،١٩٩١م)، ص٥٧

. George Hill , A history of Cyprus (Cambridge , 1972) vol 2 , p. 337.

([١٩٧]) الحافظ بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م)، ج٢، ص ٢٨٧؛ ابن الفرات، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٨، ٤٩ – ٥٠؛ على بن داود بن إبراهيم الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (تحقيق حسين حبشي، القاهرة، ١٩٧٠م)، ج١، ص ١٨٣.

وفي رمضان عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م هجمت أربعة سفن لقراصنة الفرنج على ناحية نستراوة غرب البرلس وأقاموا فيها ثلاثة أيام يسبون وينهبون [١٩٨]. وفي رجب عام ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م استولى القراصنة الأوربيون على عدة مراكب تحمل الغلال إلى بلاد الشام [١٩٩]، وفي رمضان ٨٠٣هـ/١٤٠٠م استولى القراصنة على ستة مراكب مملوءة بالقمح وهى مبحرة من دمياط إلى بلاد الشام لتعذر وجود القمح بها بسبب غزوات تيمورلنك [٢٠٠].

وفي عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م هاجم القراصنة الكتيلان على سفينة مصرية في مياه أضاليا في آسيا الصغرى واستولوا على البضائع، وأسروا التجار المسلمين بها، وباعوهم في جزيرة ناكسوس التابعة للبندقية ولكن قنصل البندقية بالإسكندرية نفى تبعية الجزيرة لدولته فأمر السلطان بحجز سفنهم في الميناء ومنعهم من الرحيل حتى يتم افتداء الأسرى المسلمين[٢٠١].

وكلما زادت الغارات كلما تعسف السلاطين المماليك في رد فعلهم تجاه الجاليات الأوربية المقيمة، فعندما طالب السلطان المؤيد شيخ التجار الأجانب بدفع الأموال تعويضا لأهالي المفقودين أرسل قنصل الكتيلان بالإسكندرية سراً إلى رعاياه في دمشق ونصحهم بالهرب ولكن المؤيد علم بالمؤامرة وقبض عليه وأهانه وضربه ضرباً مبرحا ظل يعالج منه لمدة ستة شهور ثم سجنه [٢٠٢].

([١٩٨]) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٧٨٧؛ الصيرفي، نفسه،ج١، ص ٣١٢.

([١٩٩]) المقريزي، نفسه، ص ٨١٣.

([٢٠٠]) المقريزي،السلوك،ج٣ ق٣،ص١٠٥٩.

([٢٠١]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٣٠، Doop, L'egypte on commencement , p.95 – 98.

([٢٠٢]) أحمد دراج، المرجع السابق، ص ٢٤؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها (دار المعارف، ١٩٨٩م)، ص ٣٨٧؛ محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة التوابل في مصر (الهيئة العامة، ١٩٩٩م)، ص ٩٤؛ Doop , Le relation Egypte – catalonis , (caire , 1949) , P.3.

كما أوقع العقاب على كل طوائف الأجانب من التجار والرهبان والحجاج والقناصل[٢٠٣]، ولكن القبارصة والكتيلان عادوا إلى استئناف عبثهم ففي عام ٨١٨هـ /١٤١٥م أغاروا على الإسكندرية وقتلوا عشرين رجلاً وأسروا جماعة من المسلمين تزيد على السبعين، فاضطر المؤيد شيخ إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية ضد جميع التجار الأجانب وقناصلهم بالإسكندرية ودمشق وخاصة تجار الكتيلان وقناصلهم فقبض عليهم وسجنهم بأحد أبراج القلعة [٢٠٤]، وعم الخوف تجار الكتيلان وحاولوا الهرب فأرسل ملك أراجون إلى القراصنة الذين استخدمهم لتحقيق مآربه السياسية بمهاجمة السواحل المصرية والشامية [٢٠٥].

وبلغت الجراءة بالقراصنة إلى أبعد من هذا ففي نفس العام رست ثلاث سفن لهم بميناء الإسكندرية وأعلنت قدوم وفد من ثلاثة رسل للتفاوض في عقد الصلح، وسمح لهم بالنزول إلى البر فانتهز الكتيلان هذه الفرصة، وقاموا بتخليص قنصلهم من السجن و أغاروا على الميناء وأشعلوا النيران في جميع السفن الراسية، واشتبكوا في قتال عنيف مع عساكر المماليك والتجار فقتلوا عشرين رجلا، وأسروا نحو سبعين مسلما ثم استولوا على سفن للجنوية وللبنادقة وللمسلمين وأبحروا إلى رودس[٢٠٦]، وكان من الطبيعي أن تلهب هذه العمال روح الانتقام بين المماليك وضرورة الرد على العدوان بالعدوان، وحتمية الاستيلاء على جزيرتي قبرص ورودس التي اتخذهما القراصنة وكرا لهم، وبالفعل استولى الأشرف برسباى على قبرص وأخضعها لحكمه عام

([٢٠٣]) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢١٥؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ٣٧٠؛ احمد دراج، المرجع السابق، ص٢٥- ٢٧.

([٢٠٤]) ابن حجر، نفسه؛ الصيرفي، نفسه.

([٢٠٥]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص ٣٥٣، ٣٥٧.

([٢٠٦]) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ٢١٥ – ٢١٦؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ٣٧٠ – ٣٧١؛ المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص ٣٦١.

٨٢٩هـ / ١٤٢٦م[٢٠٧]، ثم قام السلطان جقمق بغزو جزيرة رودس ولكنه فشل في إخضاعها عام ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م[٢٠٨].

لكن هذه الحملات لم تمنع القراصنة من مواصلة أعمالهم وبالتالي لم تمنع السلاطين المماليك من إنزال العقوبة الجماعية بالأجانب ففي عام ٨٨١هـ / ١٤٧٦م قبض السلطان على التجار الأجانب وصادر أموالهم، كما قبض على الرهبان الفرنسيسكان بدير صهيون وألزمهم بمكاتبة ملوك أوربا لعودة الأسرى المسلمين في مقابل الإفراج عن التجار الأجانب[٢٠٩]. وفي أواخر عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م اشتدت غارات القراصنة على السواحل المصرية خاصة بعد نجاح البرتغال في الوصول إلى طريق رأس الرجاء الصالح وهزيمة الجيش المملوكي في البحر الأحمر، وحرمان مصر من مصدر ثرائها وقوتها، فقد هاجم فرسان رودس إحدى السفن التابعة للسلطان في مياه قبرص واستولوا عليها فأمر السلطان بالقبض على التجار البنادقة وغيرهم[٢١٠].

وفي عام ٩١٦هـ / ١٥١٠ م هاجم القراصنة سفينة مصرية محملة بالأخشاب في خليج إياس كانت متجهة إلى الإسكندرية فاستولوا عليها فأمر السلطان الغوري بالقبض على الرهبان في دير صهيون، وكنيسة القيامة وعلى قنصل الكتيلان وتجارهم وأغلق متاجرهم[٢١١].

---

(٢٠٧) ابن حجر، نفسه، ج٨، ص ٧٢، ٩٧ – ١٥٥؛ ابن شاهين، المصدر السابق، ص ١٣٨ – ١٣٩، ١٤٢ – ١٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٢٩٤؛ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري، بدائع الزهور في وقائع الدهور(تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة، ١٩٧٢م)، ج٢، ١٠٨ – ١٠٩.

(٢٠٨) ابن تغرى بردى، نفسه، ج١٤، ص ٣٤٣، ج ١٥، ص ٣٦١ – ٣٦٣؛ ابن إياس، نفسه، ج٢، ص ٢٣٨، ٢٤١ – ٢٤٣؛ أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (تحقيق أحمد حطيط، فهمي سعيد، بيروت، ١٩٩٢م) ص ٣١١ – ٣١٢.

(٢٠٩) ابن إياس، نفسه، ج٣، ص ١١٩؛ أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٠٦، محمد عبد الغنى الأشقر، المرجع السابق، ص٨٦.

(٢١٠) أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٢١١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٩٥؛ هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ٣٣.

وهكذا كان رد فعل السلطات المملوكية قويا مع الأجانب المقيمين إما بالقبض عليهم ومصادرة أموالهم ومتاجرهم، أو تحديد فترة إقامتهم في البلاد، أو العقاب الجماعي على جميع الطوائف سواء كانوا تجارا أو حجاجاً أو رهباناً أو رحالة.

إجراءات الدولة في معاملة السفن الأجنبية الوافدة للموانئ المصرية :

وصلت أعداد كثيرة من السفن الأجنبية للموانئ المصرية، وحملت على متنها أجناسا متعددة، ولذا وضعت الدولة إجراءات دقيقة لاستقبال تلك السفن تمت على عدة مراحل : فالمرحلة الأولى تشمل وصول السفينة إلى الميناء، وكان لا بد من وقوفها على مسافة بعيدة في البحر وأحيانا يقضى المسافرون الليل كله فيها حتى الصباح الباكر ثم يطلق مراقب البرج إشارة لوالى المدينة فيرسل زورقًا صغيرًا به عشرون موظفا يصعدون على ظهر السفينة[٢١٢]. يكتبون في سجلات خاصة جنسية السفينة وأعداد الركاب وجنسيتهم ونوع الحمولة وحجمها ثم يرسل أحدهم تلك المعلومات إلى الوالي الذي يرسلها بدوره إلى السلطان إلى القاهرة [٢١٣]. المرحلة الثانية فقد جرت العادة على أن يرسل السلطان إلى الوالي تصريحا بالإذن بدخول السفينة للميناء وعندئذ يقوم موظف الميناء بانتزاع أشرعتها ودفتها حتى لا ترحل دون تسديد الرسوم المقررة عليها[٢١٤]. ثم تأتى المرحلة الثالثة وفيها يتم دفع الضرائب في الجمرك حيث قررت الدولة دفع دوكة واحدة أو اثنتين عن كل فرد كضريبة رأس[٢١٥].

أما التجار فكانوا يدفعون ضريبة العشر أو الخمس في بعض الأحيان عن قيمة السلع والبضائع الواردة إلى الجمرك وهى الضريبة التي كانت مقررة شرعا[٢١٦].

([212])Frescobaldi , visit to holy places (Jerusalem , 1948) , p. 38 ; Von harff , the pilgrimage of Arnold Von Harff (London , 1964) , p.92 ; Adler , Jewish Travelers (London , 1930) , p. 218.

([٢١٣]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٩١؛ أبى محمد بن جبير، رحلة بن جبير (تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م)، ص ٧؛ جاستون فييت " المواصلات في مصر في العصور الوسطى "،(ترجمة محمد وهبى، مجلة المقتطف، ١٩٣٧م)، ص٤٠.

([٢١٤]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٢؛ جاستون فييت، نفسه.

([٢١٥]) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص ١٨٣؛

Frescobaldi , op. cit , p. 38 ; Von Harff , op.cit , p. 93; Ziada , op. cit , p. 212

([٢١٦]) الأسعد بن مماتي الوزير الأيوبي، قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال، القاهرة، ١٩٤٣م

وأخيرا المرحلة الرابعة وتأتى بعد إفراغ حمولة السفينة، وتدخل البضائع باب الجمرك، وتحمل إلى داخله على أكتاف بعض الأشخاص أو على ظهور الحمير والبغال في حين يتم تفتيش الوافدين الأجانب بدقة للتأكد من عدم وجود أسلحة أو أموال مخبأة معهم وأحيانا يفتش الراكب ذاتيا ثم يقوم عامل الجمرك بتسجيل أعدادهم وأسمائهم وجنسياتهم[٢١٧].

فئات الأسرى الجانب وموقف الدولة تجاههم:

كانت الدولة المملوكية دولة عسكرية الطابع، وكان قيامها استجابة سياسية / عسكرية للأخطار المحيطة بالمنطقة، ومن ثم كانت الحرب حقيقة دائمة من حقائق الحياة السياسية لتلك الدولة وما ينتج عنها بالضرورة من الحصول على الأسرى من فئات متنوعة مثل :

أولا : الأسرى الفرنج (الأوربيين) :-

كان الأسرى الفرنج هم أول الأسرى الأجانب الذين تدفقوا إلى مصر منذ الحملة الصليبية السابقة حيث أسر المماليك عددا كبيرا من القوات الفرنسية وقد اختلفت المصادر المعاصرة في ذكر عددهم [٢١٨] ولكن هؤلاء الأسرى الفرنج لم يقدر لهم البقاء في مصر حيث تم الاتفاق على إطلاق سراحهم وكذلك الأسرى الفرنج الذين وقعوا في الأسر من قبل مع دفع مبلغ كبير من المال فدية لإطلاق سراحهم، وتم

)، ص ٣٢٦؛ القلقشندى، صبح الأعشى،ج٣، ص ٤٦٣؛ عبد المنعم ماجد، نظم المماليك ورسومهم (الأنجلو المصرية، ١٩٦٤م)، ج١، ص ٧٥.

([٢١٧]) محمد بن محمد بن على العبدرى، الرحلة المغربية (تحقيق أحمد بن جدو، الجزائر، ب. ت)، ص ٨٥؛ عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص ٣٠٠؛ Adler , op. cit , p. 158

([٢١٨]) جمال الدين محمد بن واصل، تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين (مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٥٣١٩ تاريخ)، ج٢، ورقة ١١٥٥- ١١٥٨؛ ابن إياس، نزهة الأمم في العجائب والحكم (تحقيق محمد زينهم عزب، القاهرة،ب. ت)، ص ٢١٠؛ أحمد بن على الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين (تحقيق مهدي رزق، الإسكندرية، ١٩٨٤م)، ص٥٥-٥٨.

إرسالهم إلى عكا وعاش بعضهم فيها ورحل البعض الآخر إلى بلادهم [٢١٩].

وطالما ظلت الكيانات الصليبية مقيمة في بلاد الشام كانت هناك معارك وحروب دائمة ففي عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م هاجمت القوات المملوكية قيسارية الشام، وأسرت عددا من الفرنج المقيمين بها[٢٢٠]. وما لبث أن اتجه الظاهر بيبرس إلى صفد وحاصرها لمدة أربعين يوما حتى فتحها وأسر نحو ألف من أهلها [٢٢١]. وفي عهد المنصور قلاوون توالت العمليات العسكرية على بلاد الشام ولاحظ تزايد في أعداد الأسرى فقد اتجه مباشرة لحصار طرابلس الشام في عام ٦٨٨هـ / ١٢٨٨م وفتحها عنوة وسبى عددا لا حصر له من الأطفال والنساء[٢٢٢]. وقدرهم أحد المؤرخين بحوالي ألف ومائتي أسير قد دخلوا القاهرة[٢٢٣]. وعندما فتح ابنه الأشرف خليل مدينة عكا صارت القوات المملوكية تقتل وتأسر أعدادا كثيرة لدرجة أن مؤرخي ذلك العصر لم يستطيعوا تقدير عددهم [٢٢٤].

وليس أدل على كثرة الأسرى الفرنج مما حدث حينما خرجت طائفة من الصليبين من عكا تطلب الأمان من السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وكانوا حوالي

([٢١٩]) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، نهاية الإرب في فنون الأدب (تحقيق محمد عبد الهادي، محمد مصطفى زيادة، الهيئة العامة، ١٩٩٠م)، ج٢٩، ص ٣٦٣؛

Wiet , G , Histoire de la nation Egyptienne (Pairs , 1937) , p 372.

([٢٢٠]) محيى الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٨٦م)، ص ١٣٩؛ عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، ١٩٦٨م)، ص ٨٣١.

([٢٢١]) الحسن بن عمر بن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ)، ج١، ورقة ٣٤ – ٣٦؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار في الدولة الأيوبية والمماليك (تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، ١٩٩٣م)، ص ٣٠؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٦٦.

([٢٢٢]) الذهبي، العبر في خبر من غبر (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، سيونى زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت)، ج٣، ص ٣٦٥؛ حيدر أحمد الشهابي، الغرر الحسان في تواريخ الزمان (القاهرة، ١٩٠٠م)، ص ٤٦٥؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٨٧.

([٢٢٣]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٧٤٧.

([٢٢٤]) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٣، ص ٣٧١.

عشرة آلاف رجل مستأمنين ففرقهم على الأمراء فقتلوا بعضهم وأرسلوا الآخرين إلى الحصون الإسلامية[٢٢٥]، في حين قدر عددهم بحوالي ألفي أسير فرنجي[٢٢٦].

بالإضافة إلى الأسرى الذين جلبوا عن طريق المناوشات وصد هجمات القراصنة الفرنج على السواحل المصرية والشامية فبعد غزو القبارصة للإسكندرية أرسل السلطان الأشرف شعبان المسئول عن دار الصناعة بالمدينة لمهاجمة قبرص فصادف في البحر عددا من القراصنة الفرنج فأسر منهم حوالي خمسا وثلاثين أسيرا منهم راهب طاعن في السن فأرسله إلى سجن الإسكندرية [٢٢٧]، ومثلما حدث عام ٩١٤هـ / ١٥٠٩م عندما هاجمت سفن القراصنة ميناء الطينة شرقي دمياط واستطاع الأمير تمربای أسرهم وكانوا نحو سبعة وعشرين أسيراً فأرسلهم إلى القاهرة وذلك في الوقت الذي كان فيه يقوم بعمارة الأبراج بالميناء [٢٢٨]، وكذلك ما حدث عام ٩١٧هـ / ١٥١١م عندما جاء مسئول دار الصناعة ويدعى حامد المغربي إلى القاهرة وبصحبته نحو مائتي من قراصنة الفرنج كانوا يغيرون على سواحل البرلس [٢٢٩].

كذلك وصول بعض الأسرى الفرنج من الجزر الفرنجية التي فتحها أو غزاها المماليك مثل جزيرة أرواد، وتقع شمال طرابلس الشام التي فتحت عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢م بعد حصار دام يوما كاملا [٢٣٠]، حيث كانت تمثل خطورة على السفن الإسلامية في البحر المتوسط وعلى المسلمين المقيمين بالساحل فأسروا منهم نحو ألفي

([٢٢٥]) المقريزي،السلوك،ج١ ق٣، ص ٧٦٥؛ ابن الفرات، المصدر السابق، ص ٨ و ص ١١٠ – ١١٥.

([٢٢٦]) الذهبي، دول الإسلام (تحقيق حسن إسماعيل مروة، محمود الأرناءوط، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م)، ج٢، ص ٢١٣؛كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الفواطى،الحوادث الجامعة في التجارب النافعة (بغداد، ١٣٥١ م)،ص٤٧٣.

([٢٢٧]) النويرى السكندري، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩١.

([٢٢٨]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٦.

([٢٢٩]) نفسه، ص ٢٢٠.

([٢٣٠]) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ٢٣٣؛ المقريزي، المقفى الكبير (تحقيق محمد اليعلوى، بيروت، ١٩٩١م)، ج٢، ص ٢٣٠؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص ٤٧.

أسير[٢٣١]، وكذلك جزيرة قبرص حينما غزاها الأشرف برسباى ثلاث مرات ففي حملته الثانية عام ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م أسرت القوات المملوكية سبعمائة أسير إفرنجيا وعادت بهم إلى القاهرة [٢٣٢]، وفي حملته الثالثة أسرت القوات حوالي ألف وسبعمائة أسير[٢٣٣].

يضاف إلى ذلك أعداد أخرى من الأسرى الذين وصلوا هدايا للسلطان المملوكي مثلما حدث عام ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م عندما أرسل بن عثمان صاحب الروم خمساً من الأسرى الفرنج للسلطان حاجى، وكذلك في عام ٨٧٦هـ / ١٤٧١م وصل عدد من الأسرى الآخرين إلى السلطان الأشرف قايتباي [٢٣٤].

ثانيا : الأسرى المغول

بدأ تدفق الأسرى المغول إلى الدولة المملوكية منذ موقعة عين جالوت في عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م حيث حقق الجيش المملوكي نصرا مبينا على القوات المغولية وعاد بالأسرى المغول[٢٣٥]، وكان عددهم كثيرا بالإضافة إلى ما حصل عليه الظاهر بيبرس عندما تتبع فلول التتار الهاربين [٢٣٦]، ومن هؤلاء الأسرى كان القائد المغولي كتبغا نوين الذي قتل فيما بعد وكذلك أسر ابنه [٢٣٧]. وفي عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م أسر عز

([٢٣١]) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٨٠؛ ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٨٧؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٩٢٨ – ٩٢٩؛ حيث ذكر أن عدد الأسرى كان ٢٨٠ أسيرا؛ ابن بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٥٦، ذكر بأن عدد الأسرى كانوا ٥٠٠ أسيرا.

([٢٣٢]) الشهابي، المصدر السابق، ص ٥٢١؛ المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٦٤٩.

([٢٣٣]) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٨، ص ٩٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٠٨ – ١٠٩؛ المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٦٩٥ – ٦٩٦.

([٢٣٤]) الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص ٤٨٨؛ إنباء الهصر بأنباء العصر (تحقيق حسين حبشي، دار الفكر العربي، ١٩٧٠م)، ص ٣٤١.

([٢٣٥]) القرمانى، ص ٢٧٠؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٤٣١.

([٢٣٦]) بيبرس الدودار، زبدة الفكرة، ص ٦٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،ج٧، ص ١٦٧ – ١٦٨

Cambredge of Islam ,(London ،1970) , vol 1 , p. 212.

([٢٣٧]) بيبرس الدودار، نفسه؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٥، ص ٧٩١.

الدين السكندري نائب الرحبة في بلاد الشام أكثر من ثمانين فارسا مغوليا عند استيلائه على قرقيساء [٢٣٨]، وفي ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م تقابل الجيش المغولي بالجيش المملوكي عند ألبيرة، وهزمهم الظاهر بيبرس وأسر منهم نحو المائتين [٢٣٩]، وكذلك ما حدث عام ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م حينما التقى الجيشان في الإبلستين وانتهت المعركة بهزيمة التتار وأسر الكثير منهم سلار بن طغرل وقفجاق وجاوص وغيرهم[٢٤٠]. وفي عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م هاجم الجيش المغولي بلاد الشام فخرجت القوات المملوكية إلى مرج حمص بظاهر حلب فهزم المغول وأسر منهم كثيرا وقدر عددهم بحوالي ٥٠٠ أسير مغولي [٢٤١].

وقد تكررت الهجمات المغولية على بلاد الشام ففي أيام الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م حيث تقابل الطرفان في مصر في مرج الصفر، وحقق المماليك انتصاراً ساحقا [٢٤٢]، ووصل عدد الأسرى المغول إلى ألف وستمائة أسير مغولي [٢٤٣]. بالإضافة إلى وصول الأسرى المغول هدايا للسلطان المملوكي مثلما كان في عام ٧١١هـ / ١٣١١م عندما وصل الأمير سليمان بن مهنا إلى الناصر محمد وأهداه عددا من الأسرى المغول الذين أسرهم في الغارة التي شنها عليهم فأنعم عليه

([٢٣٨]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٣٧.

([٢٣٩]) شافع بن على، حسن المناقب السرية المتنوعة بين السيرة الظاهرية (تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م)، ص ١٥١؛ صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (تحقيق سعيد عاشور، أحمد دراج، الرياض، ١٩٨٢م)، ص ٢٧٩؛ أبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥١هـ)،ج٥، ص ٣٢٤.

([٢٤٠]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٦٢٨؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٥، ص ٨٤٦.

([٢٤١]) ابن حبيب، تذكرة النبيه في أخبار المنصور وبنيه (تحقيق محمد محمد أمين، سعيد عاشور، دار الكتب المصرية،١٩٧٦م)، ج١، ص ١٦٢؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٢٤٤.

([٢٤٢]) بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية في الدولة التركية (تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ١٥٧؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٣٣٤.

([٢٤٣])المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٩٣٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٦٧؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٨٨.

السلطان بمائة ألف درهم [٢٤٤]، وهكذا ظلت أعداد الأسرى المغول تتدفق بشكل واضح إلى داخل الدولة المملوكية حتى عقد الصلح نهائيا بين الطرفان عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م [٢٤٥].

ثالثا : الأسرى الأرمن :

جلبت أعداد كبيرة من الأسرى الأرمن إلى مصر منذ أيام الظاهر بيبرس نتيجة الحملات العسكرية المتكررة على أرمينية الصغرى لتأديبها وإخضاعها حتى سقطت في أيدي القوات المملوكية [٢٤٦]، ففي عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م جرد الظاهر بيبرس جيوشه للإغارة على سيس فدمروها وعادوا بالأسرى الأرمن[٢٤٧]. وفي سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م هاجمت القوات المملوكية أرمينية الصغرى بقيادة الأمير عز الدين الأفرم وقلاوون الألفي واستولت على إياس وعدة قلاع وأسرت بعض الأرمن[٢٤٨]، ومنهم ابن ملك أرمينية ويدعى ليفون بن هيثوم وابن أخيه وعددا من قادة الأرمن [٢٤٩] فوصل عددهم نحو أربعين ألف أسير أرمني [٢٥٠].

ورغم هذا لم تتوان أرمينية الصغرى عن التعاون مع المغول ضد الدولة المملوكية حينئذ كان المماليك يردون عليها بالهجوم كما حدث في عام

([٢٤٤])المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ١٠٥ – ١٠٦.

([٢٤٥])أبو الفدا، المصدر السابق، ج٤، ص ٩١؛ المقريزي، نفسه، ص ٢٤٢.

([٢٤٦]) سعيد عاشور،الحركة الصليبية،ج٢، ص ١٢٢١ – ١٢٢٢؛

Cambredge of medieval history , vol 4 , p. 181 – 182

([٢٤٧]) ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج١، ص١٠٠؛ ابن إيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٩٠؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٢٧.

([٢٤٨]) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١، ص ٣٢٥.

([٢٤٩]) ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج١، ص ١٥٢؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٥، ص ٨٣٤.

([٢٥٠]) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٤٢٢؛ أنطوان خانكى،مختصر تواريخ الأرمن (القدس، ١٨٦٨م)، ص ٢٣٩؛ فؤاد حسن حافظ، تاريخ الشعب الأرمنى منذ البداية حتى اليوم (القاهرة، ١٩٨٦م)، ص١٦٣.

٦٧٣هـ/١٢٧٣م حينما فتح المماليك مدينة كينوك [٢٥١] ببلاد الأرمن وذلك لأن أهلها كانوا يتعرضون للتجار المسلمين المارين ببلادهم وعادوا بالأسرى [٢٥٢]. الذين كثر عددهم بحيث لم يستطيع بعض مؤرخي ذلك العصر حصر عددهم بالإضافة إلى غنائم أخرى [٢٥٣].

وفي عام ١٢٨١/٦٨٠م أرسل المنصور قلاوون عساكره إلى سيس فاحتلوا قيلقيا ثم طرسوس ثم القصر الملكي الأرمنى، وأسروا نحو عشرة آلاف جندي من جيوش ليون الثالث[٢٥٤]، ثم أرسل الناصر محمد بن قلاوون حملات عسكرية متكررة إلى أرمينية الصغرى رغبة في إخضاعها مثلما حدث في عام ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م حينما جرد جيشه إلى سيس لأن أهلها طردوا من بها من المسلمين فاستولى عليها وأسر حوالي ثلاثمائة أرمني [٢٥٥]. مما جعل الأرمن يقومون بحبس ألفي مسلم في فندق وأحرقوه بهم [٢٥٦]، وكالعادة رد عليهم الناصر محمد بن قلاوون بإرسال حملة عسكرية ضخمة استولت على إياس وسيس وطرسوس، وعادت بمائتي وأربعين أسير أرمنى[٢٥٧]، ثم ما لبث أن سقطت أرمينية وخضعت للسيادة المملوكية نهائيا وأسر ملكها ليون الخامس وأصبحت ولاية تابعة للدولة المملوكية [٢٥٨].

([٢٥١]) مدينة كينوك من بلاد الأرمن بين ملطية وسيماط يقال لها الحمراء، انظر ياقوت الحموني، معجم البلدان (تحقيق فريد عبد العزيز، بيروت، ١٩٩٠م)، ج٤، ص ٤٥٥.

([٢٥٢]) ابن الفرات، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٧ – ٢٨؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٥٠؛ ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٥.

([٢٥٣]) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج١، ورقة ٤٨؛ عز الدين بن شداد، تاريخ الظاهر بيبرس، ص ١٠٦.

([٢٥٤]) مروان المدور، الأرمن عبر التاريخ (مكتبة دار الحياة، بيروت، ١٩٨٢م)، ص ٢٣٧.

([٢٥٥]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١، ص ٤٧٠؛ أبو الفدا، المصدر السابق، ج٤، ص ١١٥، حيث ذكر أن الأسرى كان عددهم ٢٤٠ أسير.

([٢٥٦]) ابن إياس، نفسه، ج٢ ق١، ص ٤٧٠ – ٤٧١.

([٢٥٧]) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٣٩٧؛ موسى بن يحيى اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، (تحقيق أحمد حطيط، بيروت، ١٩٨٦م)، ص ٣٦٦.

([٢٥٨]) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج١، ص ٩٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٦٦؛ فؤاد حسن حافظ، المرجع السابق، ص ١٦٧.

رابعا : الأسرى النوبيون :

كانت مملكة النوبة المسيحية تدين بالطاعة والولاء لمصر وتؤدى جزية سنوية غير أن ملوكها كثيرا ما رفضوا دفع الجزية وأثاروا المشاكل على الحدود الجنوبية، ولذا فقد كان من الطبيعي أن ترسل الدولة المملوكية حملات عسكرية لإخضاعها مثلما حدث عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م حينما أرسل الظاهر بيبرس قواته إلى النوبة فأسروا عددا كثيرا من النوبيين ومنهم أخو الملك داود وأمه وأخته[٢٥٩]. أما الملك النوبي فقد هرب إلى بلاد الأبواب فأرسله ملكها إلى الظاهر بيبرس الذي اعتقله في قلعة الجبل بالقاهرة إلى أن توفي في السجن[٢٦٠]، كما أسرت الحملة عشرين أميرا نوبيا رهينة لضمان وفاء الملك النوبي الجديد بشروط المعاهدة[٢٦١]، ثم أرسل السلطان المنصور قلاوون جنوده مرة أخرى إلى بلاد النوبة عام ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م حيث بلغه أن ملك النوبة جمع عساكره قاصدا الهجوم على أسوان[٢٦٢]، فدخلت الجيوش المملوكية إلى آخر البلاد وعادت بالعبيد والجواري إلى القاهرة[٢٦٣].

وحينما امتنع ملكها كرنبس عن دفع الجزية وعمل على مد نفوذه أرسل إليه الناصر محمد بن قلاوون حملة عسكرية عام ٧١٦هـ / ١٣١٦م فهرب فأتبعه الجيش وأسره مع عدد من النوبيين [٢٦٤] وبعدها عاد كرنبس إلى السلطة ودخلت القبائل العربية إلى بلاد النوبة واندمجت مع شعبها، واعتنق أهلها الإسلام، واصطبغت بالطابع العربي الإسلامي، وبذلك انقطعت الجزية وانعدم وجود الأسرى النوبيين[٢٦٥].

([٢٥٩]) عز الدين بن شداد، المصدر السابق، ص ١٢٩؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٨٠؛ النويرى، نهاية الإرب ج٣٠، ص ٣٤٤.

([٢٦٠]) ابن الفرات، المصدر السابق، ج٧، ص ٥٠؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٥٥؛ ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٦.

([٢٦١]) المقريزي، الخطط، ج١ ص ٣٢٦.

([٢٦٢]) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٣٠٢؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٢٤٣؛ مصطفى محمد سعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص ١٥٣ – ١٥٨.

([٢٦٣]) ابن دقماق، نفسه؛ ابن الفرات، المصدر السابق، ج٨، ص ٥٢.

([٢٦٤]) على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية (دار النهضة، ١٩٤٤م)، ص ١٧٨.

([٢٦٥]) المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ١٦١؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٧٦ – ٢٧٧.

موقف الدولة من الأسرى الأجانب :

اتبعت الدولة المملوكية أساليب متعددة عند معاملة الأسرى، حيث قامت أولا بعرض الأسرى الجانب في الشوارع والطرقات والميادين أمام الشعب المصري، وذلك لهدفين أحدهما لرفع الروح المعنوية للناس، وشفاء للقلوب الذين استشهدوا رجالهم وأولادهم في الحروب مع العدو، وثانيهما أن هذا العرض يمثل إذلالا ومهانة للعدو جزاء ما اقترفه من جرائم في حق المسلمين، ولذا حرص السلاطين المماليك على عرض الأسرى الأجانب بهذا الشكل حتى يصلوا إلى مقر السلطان بقلعة الجمل [٢٦٦].

وهذه الطريقة كانت متبعة قبل العصر المملوكي حيث أورد لنا الرحالة الأندلسي ابن جبير مشهدا لعرض الأسرى الأجانب عند دخولهم ميناء الإسكندرية سنة ٥٨٩هـ / ١١٨٣ م فقال : " قد عاينا مجتمعا من الناس برزوا لمعاينة أسرى الروم وقد دخلوا البلاد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذناب الجمال وحولهم الطبول والأبواق "[٢٦٧].

في حين كان الظاهر بيبرس أكثر قوة عند تعامله مع الأسرى الأجانب فحينما أسر عددا من النوبيين عام ٦٧٤هـ /١٢٧٥م أمر أن يعلق كل أسير على جمل ويدور به في شوارع القاهرة حتى الموت [٢٦٨]، أما الأسرى القبارصة فقد ذاقوا الهوان والذل والضعف في حين تم عرضهم في شوارع القاهرة بطريقة مذلة حيث ساروا في صف واحد يتقدمهم الفرسان المماليك ثم المشاة وحملة الغنائم ثم الأسرى والسبي من النساء والأطفال[٢٦٩]، وفي نهاية الصف سار الملك جانوس الأول مقيدا وممتطيا بغلا أعرج

([٢٦٦]) فايد حماد عاشور، التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية (دكتوراه غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٧٢م)، ص ٣٧٧.

([٢٦٧]) أبى الحسن محمد بن جبير، رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م)، ص ٢٩.

([٢٦٨]) أنور زقلمة، المماليك في مصر، (القاهرة ١٩٩٥)، ص ٦٨.

([٢٦٩]) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية،(دار النهضة، ١٩٥٧م)، ص ١١٧.

ومعه اثنين من خواصه وحوله كبار أمراء الحملة [٢٧٠]. هذا وقد أمدنا ابن إياس بوصف رائع لمشهد دخول الملك القبرصي فقال : " في عام ٨٢٩هـ فتح المسلمون جزيرة قبرص وأسروا ملكها وجيء به إلى القاهرة في سلاسل أسيرا وكان دخوله يوما مشهودا ودخل معه العسكر الفرنج في سلاسل[٢٧١]، وعند باب القلعة نزل جانوس عن مطيته وكشف عن رأسه وقبل الأرض بين يدي السلطان الأشرف برسباى ثم سقط مغشيا عليه فلما أفاق سقط مرة أخرى من صعوبة الموقف الذي وضع فيه، ومن مهابة السلطان، ومن كثرة الجنود والأمراء والمماليك حوله[٢٧٢]، وعندما أفاق مرة أخرى تنحى جانبا واستعرض السلطان الغنائم والأسرى ثم سمح له بمقابلته واتفق مع السلطان على الفدية والإفراج عنه [٢٧٣]، وعلى هذا النحو استمر المماليك في عرض الأسرى بطريقة مذلة ومهينة فحينما دخل إبراهيم التازى رئيس دار الصناعة في الإسكندرية عام ٧٦٩هـ/١٣٦٨م بالأسرى الفرنج إلى المدينة كانوا يسيرون حفاة الأقدام وفي أسوأ حال وشر وبال وشعورهم منثورة وبأيديهم الأخشاب وربطت أعناقهم بالحبال[٢٧٤].

وكذلك الحال مع الأسرى المغول ففي عام ٦٨٠هـ / ١٢٨١م دخل المنصور قلاوون بالأسرى المغول من دمشق إلى غزة ثم إلى القاهرة وخرج الناس لمشاهدتهم حتى دخلوا قلعة الجبل وقد حمل بعضهم السناجق المكسورة وكان يوما مشهودا [٢٧٥]. بالغ السلاطين المماليك في إذلال الأسرى المغول ففي عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م أسرت

([٢٧٠]) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٩؛ القرمانى، المصدر السابق، ص ٣٠٧.

([٢٧١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٠٨ – ١٠٩؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٤١.

([٢٧٢]) ابن حجر، المصدر السابق، ج٨، ص ٩٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٣٠١.

([٢٧٣]) العينى، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٨٥؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٤٣؛
Stanly Lane poole , A history of Egypt in the middle ages , (London , 1901) , p. 337

([٢٧٤]) النويرى السكندرى، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩١.

([٢٧٥]) ابن بهادر، المصدر السابق، ورقة ٣٣٠؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٧٠١؛ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت، ط ٤، ١٩٨٢م)، ج١٣، ص ٢٩٦.

القوات المملوكية جماعة من المغول فدخلوا القاهرة وساروا في شوارعها وهم مقيدون ومعلق في رقابهم ألف وستمائة رأس مغولي مقتول وطبولهم أمامهم مخرقة [٢٧٦] وثمة حادثة نادرة الحدوث ٦٧١هـ/١٢٧٢م تقدم الأسرى المغول ودخلوا القاهرة وهم يركبون خيولهم، ولم يتعرض لهم أحد بسوء[٢٧٧]، وهكذا كان يتم عرض الأسرى الأجانب في الشوارع والميادين وتعلق الزينات وتقام أقواس النصر وينتشر الفرح ويخرج الناس لمشاهدتهم.

ومع هذه القسوة والشدة إلا أن السلاطين المماليك كانوا يعاملون بعض الأسرى باللين والرفق في بعض الأحيان ويسمحون لهم بممارسة حياتهم بصورة شبه طبيعية فعندما أسر الظاهر بيبرس ليفون بن هيثوم الأرمنى أمر بفك قيوده وأنعم عليه إنعامات كثيرة وأخذه إلى بركة الجب بالقلعة [٢٧٨] وشاهد معه رماية البندق في ميدان اللعب[٢٧٩].

وثمة مثال آخر يوضح حسن معاملة الأسرى الأجانب حين أمر السلطان الأشرف برسباى رجاله بحماية الملك القبرصي وخصص له عشرين رطل لحم يوميا وستة طيور ودجاج وخمسمائة درهم، كما سمح له بإقامة بعض من رجال حاشيته معه لخدمته [٢٨٠]، وأعطاه تصريحا بزيارة الأماكن المقدسة في مصر مثل الكنائس والأديرة بالقاهرة كما أهداه حصانا مغطى بغطاء مزركش[٢٨١].

ومثال ذلك : ما حدث مع الملك الأرمنى ليون الخامس الذي اقتيد أسيرا إلى

([٢٧٦]) المقريزي، نفسه، ص ٩٣٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٦٧؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٨٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٢٢.

([٢٧٧]) ابن أيبك، نفسه، ج٨، ص ١٥٢؛ ابن تغرى بردى، نفسه، ج٧، ص ١٦٠.

([٢٧٨]) بركة الجب : تقع بظاهر القاهرة ويسميها العامة بركة الحجاج لنزولهم بها ثم أصبحت متنزها للخلفاء والسلاطين، انظر المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٨٤.

([٢٧٩]) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧.

([٢٨٠]) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٢٠٣؛ سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية (دار النهضة المصرية، ١٩٥٧م)، ص ١١٩.

([٢٨١]) ابن تغرى بردى، نفسه، ص ٢٠٦؛ Stanly , op. cit , p. 337

القاهرة حيث سمح له السلطان بزيارة دير سانت كاترين بسيناء وبأداء الحج في القدس الشريف[٢٨٢]، كما أعد له مكانا خاصا به ليقيم فيه وحدد له راتبا شهريا [٢٨٣]، ويبدو أن هذه الأمثلة كانت نادرة الحدوث فقد لاحظنا أن هؤلاء الأسرى ذو مكانة سياسية في بلادهم فاتبع السلطان معهم الأسلوب الحضاري في تكريمهم وحمايتهم حتى يتم رحيلهم عن مصر.

هذا وقد أمكننا التأكد من موقف السلطات المملوكية من الأسرى الأجانب بعد دخولهم البلاد أنه اتسم بالشرعية بمعنى أنهم قد اتبعوا مبادئ الشريعة الإسلامية في تحديد مصير هؤلاء الأسرى حيث كان من حق الحاكم خمسة أشياء وهى : القتل، الفداء، الاسترقاق، المن، الجزية أو الإسلام [٢٨٤].

جرت العادة في بعض الأحيان أن يأمر السلطان بقطع رقاب الأسرى وذلك لبث الرعب في نفوس الأعداء فربما يسارعون بالاستسلام أو رغبة في الانتقام منهم مثال ما حدث عام ٦٦٥هـ/١٢٢٦م حينما أمر الظاهر بيبرس بقتل بعض الأسرى الفرنج من عكا أمام رسل الفرنج القادمين من صيدا وسيس وقال لهم : " هذا قبالة إغارتكم على بلاد الشقيف"[٢٨٥].

وفي عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م جاء الخبر بأن فرنج عكا قتلوا عددا من الأسرى المسلمين فأمر السلطان بإغراق الأسرى الفرنج في البحر[٢٨٦]. وفي الفترات التي تلت طرد الصليبين من بلاد الشام كان يتم قتل بعض الأسرى الفرنج بصورة مباشرة كرد فعل قوى وطبيعي تجاه ما فعلوه من جرائم على السواحل المصرية والسورية، وأحيانا

([٢٨٢]) انطوان خانكى، المرجع السابق، ص ٢٥٨؛ فؤاد حسن، المرجع السابق، ص ١٦٧؛ حسين النحال، الحروب الصليبية المتأخرة على مصر وتونس في أواخر العصور الوسطى (دكتوراه غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٩١م)، ص ٥٨.

([٢٨٣]) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٤٣٠.

([٢٨٤]) أبو عبد الله محمد بن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف،(القاهرة، ١٣٢٠هـ)، ج٢، ص ١٠٧؛ النويرى السكندري، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٤١.

([٢٨٥]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٥٥٩، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨١.

([٢٨٦]) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ١٥١.

يحتفظ السلطان ببعض الأسرى لاستبدالهم بالأسرى المسلمين[٢٨٧]. أما الأسرى المغول فقد كان يتم قتل بعضهم وإبقاء البعض الآخر على قيد الحياة للاستفادة منهم[٢٨٨].

أما بالنسبة لمبدأ فداء الأسرى مقابل مبلغ من المال فقد حدث مع الملك القبرصي جانوس الأول الذي هدده السلطان الأشرف برسباى بدفع فدية وإلا تعرض للقتل، ولكنه لم يكن يملك مالا في ذلك الوقت فتكفل القناصل والتجار الأجانب بدفعها وقدرت بحوالي مليون دينار[٢٨٩]، كما أوردت بعض المصادر المملوكية ما يفيد بأن بعض الأسرى الأجانب الأثرياء كانوا يفدون أنفسهم بالمال وذلك مثلما حدث عام ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م عندما افتدى ثلاثة من الأسرى الجنوية أنفسهم بثلاثة آلاف درهم وأطلق سراحهم[٢٩٠]، وكذلك ما حدث في عام ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م عندما أسر السلطان مائة وخمسين فرنجيا أغاروا على السواحل السورية وفيهم القنصل الأجنبي فأمر بقتل بعضهم وسجن البعض الآخر وقيد القنصل وطلب منه فدية مائة ألف دينار ليفدى نفسه ثم أطلق سراحه بعد الدفع[٢٩١].

وأيضًا كان يسمح للأجانب الأحرار بشراء الأسرى فلدينا وثيقة في سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م فيها اشترى قنصل البندقية أسيرا إيطاليا من التاجر الفقيه شمس الدين محمد بن عساكر الطرابلسي بمبلغ ٣٥ دوكة ودفع منه ٢٥ دوكة وأجل الباقي حتى يستلم الأسير[٢٩٢]. كما كان يسمح للأسرى الأجانب بافتداء أنفسهم حيث كانوا يتجولون في شوارع القاهرة مكبلين بالقيود ومعهم حراس وهم يقومون بالتسول لجمع الأموال

([٢٨٧]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٣٦٠، ج٢، ص ٣٥٦.

([٢٨٨]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٦٢٨، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٦١.

([٢٨٩]) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٨، ص ١١٢، Stanly , op. cit , p. 337

([٢٩٠]) ابن حجر العسقلاني، نفسه، ص ٣٠٢

([٢٩١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٥٦.

([٢٩٢]) صبحى لبيب، الفندق ظاهرة سياسية و اقتصادية وقانونية (ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٥م)، ص ٢٩٨.

لإطلاق سراحهم[٢٩٣].

هذا بالإضافة إلى فداء الأسرى بالتبادل مع الأسرى المسلمين فحينما أطلق الظاهر بيبرس سراح ابن الملك الأرمنى ليفون اشترط عليه أن يعيد إليه الأمير سنقر الأشقر الأسير المملوكي لدى المغول[٢٩٤]، ويبدوا أن الملك الأرمنى قد تأخر في الرد فأرسل له الظاهر بيبرس يقول : "إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك وليس منى ومهما شئت فافعل"[٢٩٥].

كما يمكن افتداء الأسرى بالذهب في حالة إذا كان الأسير من أسرة نبيلة وعريقة ففي عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣ م أفرج الناصر محمد عن أسير من جزيرة أرواد بناء على طلب الملك الأراجوني في مقابل فدية من الذهب [٢٩٦]، وتكرر نفس الحدث في عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٦م حينما أفرج عن اثنى عشر أسيرا ثم عن تسعة آخرون وكان منهم ابن أحد الأساقفة الفرنج فطلب السلطان منه فدية من الذهب[٢٩٧].

ومن المرجح أن السلطان المملوكي كان في أحيان أخرى يأمر بالعفو والمن على بعض الأسرى وفقا للظروف السياسية، وكان من حقه الرجوع عن أوامره مثلما حدث في عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م عندما عقد الظاهر بيبرس هدنة مع فرنج الشام وتقرر إرسال الأسرى الفرنج إلى نابلس حفظا للعهد، ولكمهم تأخروا في تسليم الأسرى المسلمين فأمر السلطان برجوع الأسرى الفرنج إلى الحصون الإسلامية [٢٩٨].

ثم ما حدث في عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م عندما أسر الجيش المملوكي بعض

([٢٩٣]) ابن الصيرفى، أبناء الهصر، ص ٢٠٣، ٣٢١، ٢٠٤.

([٢٩٤]) الشهابى، المصدر السابق، ص ٤٥٥؛ الذهبى، دول الإسلام؛ج٢، ص ١٧؛ كمال الدين أبى الفضل بن الفوطى، الحوادث الجامعة في التجارب النافعة (بغداد، ١٣٥١هـ)، ص ٣٥٥.

([٢٩٥]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٥٦٩؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧٢.

([٢٩٦]) المقريزي، نفسه، ج١ ق٣، ص ٩٥٠ – ٩٥١؛ العينى، ا لمصدر السابق، ج٤، ص ٣٠٧ – ٣٠٨

([٢٩٧]) Atiya (A. S) , Egypt and Aragon , (Leipzig , 1983) , P. 33 – 39

([٢٩٨]) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ج٢، ورقة ١٢٦٥؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ١٩؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨.

الأسرى المغول فأمر السلطان بالعفو عن البعض منهم زيرك وهو صهر أبغاخان، وسرطق، وجوديه، وبردكية، وتماديه[٢٩٩].

وطبقًا للشريعة الإسلامية حاول المماليك تطبيق مبدأ عرض الإسلام أو الجزية على الأسرى الأجانب، فقد حدث في عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م أن عرض الظاهر بيبرس الإسلام على عدد من الأسرى المغول والفرنج والنوبيين عدة مرات حتى أسلموا، ووزع عليهم مائة وثمانين فرسا كما انضموا للجيش المملوكي [٣٠٠]، وعندما أحضر ابن عثمان صاحب الروم جماعة من الأسرى الفرنج هدية للسلطان المؤيد شيخ فعرض عليهم الإسلام فأسلموا طوعا فوزع البعض للعمل في الديوان وفرق بعضهم على الأمراء لخدمتهم برواتب محددة [٣٠١]، وفي سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م وصل نائب الإسكندرية إلى القاهرة ومعه عدد من الأسرى الفرنج فعرض عليهم السلطان الإسلام فأسلم منهم ثلاثة وسجن الباقي[٣٠٢].

يضاف إلى ذلك حق السلطان في إرسال الأسرى هدايا للحكام والملوك، وليس أدل على ذلك مما كان في عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٢م حيث أرسل السلطان الظاهر بيبرس هدية إلى ملك صقلية كانت عبارة عن عدد من أسرى المغول الذين تم أسرهم في موقعة عين جالوت[٣٠٣]. وفي سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م أرسل هدية إلى صاحب عكا كانت عبارة عن عدد من الأسرى الفرنج من أنطاكية[٣٠٤]، كما أرسل السلطان المنصور قلاوون عددا من الأسرى المغول إلى ملك اليمن في عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م [٣٠٥]، أما المبدأ الأخير وهو الاسترقاق ونقصد به عرض الأسرى الأجانب في أسواق

([٢٩٩]) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص ١٣٥.

([٣٠٠]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٥١١؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧٥.

([٣٠١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٣٧ – ٣٨.

([٣٠٢]) الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٤٤٤؛ ابن إياس، نفسه، ج٣، ص ٧٥.

([٣٠٣]) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٨٨؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢٤ – ١٢٥؛ أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى (الإسكندرية، ١٩٨٢م)، ص ٢٠٣.

([٣٠٤]) بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٣٨؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٧١.

([٣٠٥]) المقريزي، نفسه، ص ٧٠١ – ٧٠٢.

الرقيق سوف نتناوله عند الحديث عن الرقيق الأجنبي. وهكذا لاحظنا أن السلاطين المماليك قد طبقوا الشريعة الإسلامية في تحديد مصير الأسرى الأجانب ووفقاً للظروف السائدة في ذلك الوقت.

اهتم سلاطين المماليك بوضع نظام للإشراف على الأسرى الأجانب، ووضعوا قواعد ونظماً محددة لحمايتهم ولحماية المجتمع المصري، حيث كان هناك موظف في ديوان الجيش يسمى كاتب الجيش يقوم بكتابة وتسجيل أسماء المسجونين وجرائمهم في سجلات خاصة، وكذلك أسماء الأسرى وجنسياتهم، والميعاد الذي دخلوا فيه السجن، ومن أفرج عنه بمقتضى مرسوم شريف محددا اليوم والتاريخ الذي خرج فيه، وكذلك يسجل اسم من أسلم منهم وتاريخه وجنسيته أو من هرب من السجن أو من هلك في الأسر[٣٠٦]، وكذلك كان يوجد ناظر الأسرى الذي كان مسئولا عن الأسرى في السجون ويعاونه مساعدون يقومون بتسجيل أسمائهم والإشراف عليهم، وأحيانا كان يجمع الناظر بين عدة وظائف، وليس أدل على ذلك مما جاء في الوفيات عام ٧٥٤هـ حيث ذكر ابن حجر العسقلاني "على بن يحيى بن محمد بن عبد الرحمن السلمي الذي كان يجيد الخط وحسن الضبط ولى شهادة الخزانة ونظر الأسرى"[٣٠٧].

وكذلك كان الاستدار والفراش خاناه يشرفان أحيانا على الأسرى التابعين للسلطان الذين قاموا برعاية الكلاب السلطانية أطلق عليهم الكلابزية[٣٠٨]. أما الأسرى الذين كانوا يعيشون في المعتقل فكان يشرف عليهم نائب السلطنة بالديار المصرية، ويعين حراس يقومون بحراستهم عند الخروج للعمل[٣٠٩].

([٣٠٦]) النويرى، نهاية الإرب، ج٨، ص ٢٨٣.

([٣٠٧]) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (تحقيق الشيخ عبد الوارث محمد على، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٧م)، ج٣، ص ٨٢.

([٣٠٨]) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٣٢؛ القلقشندى، المصدر السابق، ج٤، ص٢٠؛ النويرى، نهاية الإرب، ج٨، ص ٢٣٢؛ تاج الدين عبد الوهاب السبكي، معيد النعم ومبيد النقم (تحقيق محمد على النجار، القاهرة، ١٩٩٣م)، ص ١٤٥.

([٣٠٩]) القلقشندى، المصدر السابق، ج ١٤، ص ٩٣.

فئات الرقيق وأنواعه :

أما فيما يختص بمصادر الحصول على الرقيق الأجنبي فقد تعددت وتنوعت هذه المصادر ويأتي على رأسها أسرى الحروب، ولكن يشترط أن تكون الحرب مع غير المسلمين حيث حرمت الشريعة الإسلامية أسر أو بيع أفراد من الديار الإسلامية[٣١٠]. وهؤلاء يتم عرضهم في أسواق الرقيق مثلما حدث في عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م حيث أمر السلطان الظاهر بيبرس بيع الأسرى الفرنج بحيث لم يبق غلام إلا وله غلام وتقاسم الناس النساء والبنات والأطفال وبيع الأسير الصغير باثنى عشر درهم وبيعت الجارية بخمسة دراهم[٣١١]، كما أمر ببيع أسرى النوبة عام ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م وبيع كل أسير بثلاثة دراهم في النوبة [٣١٢]. وتبقى حوالي ألف أسير تم بيعهم في أسواق القاهرة بمائة ألف درهم وعشرة آلاف، وأمر السلطان بألا يفرق بين الأم وأولادها مراعاة للطبيعة الإنسانية[٣١٣].

أما المصدر الثاني فهو الشراء على أساس أن الرقيق سلعة تباع وتشترى فقد كانت تجارة العبيد من أهم الأنشطة التجارية والاقتصادية في العصور الوسطى، ونظرا لحاجة الدولة المملوكية للعبيد لأنها قد قامت على أساس الرق فقد حرص السلاطين المماليك على اقتناء الرقيق الأبيض والأسود من آسيا وأفريقيا وأوربا[٣١٤]. وقد كان أكثر الرقيق يجلبون من بلاد الإغريق (اليونان) وحول بحر قزوين، وأرمينية، وبلاد التتار، وبلاد القوقاز، والجراكسة حيث جرت العادة عند بعض القبائل بيع أولادهم بسبب الجوع والفقر وغلاء الطعام[٣١٥]. وكانت البندقية وجنوة أكبر

([٣١٠])أحمد شفيق بك، الرق في الإسلام (ترجمة أحمد زكى، القاهرة، ١٨٩٢م)، ص ٥٧؛ أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، ص ١٤.

([٣١١])بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٣٨.

([٣١٢]) ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٥؛ عز الدين بن شداد، المصدر السابق، ص ١٢٩؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ١٨٣ – ١٨٤.

([٣١٣]) ابن أبى الفضائل، نفسه، ص ٢٣٦؛ عز الدين بن شداد، نفسه، ص ١٣٠؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ١٨٤.

([٣١٤]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٢٢١؛ سمير الخادم، المرجع السابق، ص ٣٥٢.

([٣١٥]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٢٢١؛ سمير الخادم، المرجع السابق، ص ٣٥٤؛ محمود عبد

دولتين تصدران الرقيق إلى مصر من ميناء كافا وتانا على البحر الأسود فأصبحا أهم موانئ تجارة الرقيق بنوعيه في المنطقة[٣١٦].

وتطالعنا المصادر المعاصرة بمعلومات هامة عن حرص المماليك على شراء العبيد حيث استطاع الظاهر بيبرس أن يحصل من الإمبراطور البيزنطي على ترخيص بمرور سفينة مصرية في مضيق البسفور لجلب الرقيق وما لبث أن أرسل سفينتين تحملهم من البحر الأسود إلى أسواق القاهرة والإسكندرية [٣١٧]. كما عقد السلطان المنصور قلاوون اتفاقية تجارية معه تسمح بمرور التجار المسلمين عبر بلاده لشراء الجواري والعبيد دون عائق[٣١٨].

حاول السلاطين المماليك شراء العبيد بطرق متعددة منها تخصيص تاجر سلطاني يقوم بهذه المهمة وربما تعرض للعقاب إذا خالف أوامر السلطان فحينما أعطى الظاهر بيبرس أحد التجار أموالا لشراء مماليك وجواري فطمع في المال فأمر السلطان بالقبض عليه وحبسه[٣١٩]، كما عهدوا إلى رجال البريد بشراء العبيد والجواري واستدعاء المغنيين حسنى الصوت للغناء في مجالس الشراب والرقص ففي عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م أرسل الناصر محمد بن قلاوون الأمير سر طقطاى مقدم البريدية بمصر في سفارة إلى أزبك خان في مهمة دبلوماسية، وكلفه بشراء مماليك وجواري من بلاد الترك، وأعطاه لذلك مبلغ عشرين ألف دينار[٣٢٠].

وثالث هذه المصادر هي وصول الرقيق هدايا من الملوك حيث اعتاد السفراء

العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون (سلسلة أعلام العرب (٢٨)، الهيئة العامة، ١٩٦٤م)، ص ٦٨.

([٣١٦]) عبد المنعم ماجد، نظم المماليك ورسومهم (الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م)، ج١، ص١٢؛ نعيم زكى، نفسه.

([٣١٧]) سمير الخادم، المرجع السابق، ص ٣٥٣؛ لبيبة إبراهيم، الرقيق وتجارته في مصر والشام عصر المماليك (ماجستير غير منشور – آداب القاهرة، ١٩٩٣م)، ص ١٤٨ – ١٥٠.

([٣١٨]) القلقشندى، المصدر السابق، ج ١٤، ص ٧٧؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٢٠٥.

([٣١٩]) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٨٢.

([٣٢٠]) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ص ٤٢٣؛ اليوسفي، المصدر السابق، ص ٣٧٩.

القادمون إلى مصر تقديم هدايا قيمة وخاصة من العبيد والجواري ففي عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وصل سفير ملك الحبشة إلى المنصور قلاوون ومعه هدية من الخدم والجواري والذهب[٣٢١]، وفي عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م حضر سفير مغولي وقدم للسلطان ثلاثين مملوكا وعشر جوارِ حسنة الشكل كالبدر الطالع[٣٢٢].

أما المصدر الرابع والأساسي فهو ما كان يرسله الملك النوبي من الرقيق الأسود وفقا لمعاهدة البقط والتي نصت على تقديم عددٍ من العبيد لا يقل عن أربعمائة عبدِ كل عام وأحيانا يزيد إلى الألف[٣٢٣].

وثمة مصدر خامس لا يقل أهمية عما سبق وهو مجيء الرقيق في موسم الحج حيث اعتاد الحجاج القادمون من بلاد التكرور على جلب العبيد السود معهم وبيعهم في أسواق مصر مثلما حدث عام ٨١٩هـ[٣٢٤].

بالإضافة إلى مصدر سادس وهو قدومهم عند زواج السلطان حيث جرت العادة أن تأتى العروس إلى مصر ومعها عدد من الرقيق، فعندما تزوج الناصر محمد بن قلاوون من إحدى الأميرات المغوليات في عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م أحضرت العروس معها مائة من الأمراء وخمسين رجلا وستين جارية جركسية[٣٢٥].

اعتمد المجتمع المصري حكامًا وشعبًا على الرقيق بنوعيه الأبيض والأسود حيث كان يأتي الرقيق الأبيض من آسيا الصغرى وبلاد المغول وتركيا وفارس وبلاد ما وراء النهرين وبلاد القوقاز والجركس كما سبق القول. ومن مراكز تجارة العبيد البيض كانت موانئ تانا وكافا وتركيا.

---

(٣٢١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٧٠؛ المقريزي، نفسه، ج١ ق٣، ص ٧٥٠؛ القرماني، المصدر السابق، ص ٣١١، حوادث عام ٨٥٤هـ.

(٣٢٢) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٢٨٠.

(٣٢٣) ابن بهادر، المصدر السابق، ورقة ٤٨٦؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٢٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١، ص ٤٤١.

(٣٢٤) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص ٣٦٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٩؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢٢٣.

(٣٢٥) المقريزي، نفسه، ج٢ ق١، ص ٢٠٤؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ص ٣٠٣.

أما الرقيق الأسود فقد أتى من سائر البلاد الأفريقية، وكانت هناك أسواق لتجارة الرقيق وتجميعه في أفريقيا منها زويلة ودارفور وشندى [٣٢٦]. كما وجدت في غانة سوق رائجة لتجارة الرقيق الذي يجلب عن طريق القنص من الحدود الجنوبية لغانة حيث يوجد الزنوج البدائيون [٣٢٧].

اعتاد تجار الرقيق على جلب الغلمان الخصيان من أوربا والحبشة وخاصة العناصر الحبشية المسيحية[٣٢٨]، وكانت أهم المدن التي يباع فيها الخصيان السود هي مدينتا – وشلو وهدية [٣٢٩] في دول الطراز الإسلامي[٣٣٠]، أما الخصيان البيض فكانوا يجلبون من بلاد الروم والهند والأندلس [٣٣١].

ومن المرجح أن وجود هؤلاء الرقيق كان يتطلب وجود أسواق خاصة وخانات يباع فيها، وقد كان لكل نوع سوق خاص به فالعبيد البيض خصص له خان جعفر وكالة كشك[٣٣٢]، وكذلك خان مسرور –ويقع قرب الصاغة تجاه باب الزهومة إلى الجامع الأزهر– وكانت به حجرتان لبيع الرقيق [٣٣٣]، أما الرقيق السود فقد خصص له أسواق في أسيوط وأسوان والقاهرة والتي وجدت بها وكالة سميت بوكالة الجلابة

([٣٢٦]) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٤١٨ – ٤١٩؛ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق (القاهرة، ب ت)، ص ٣٦.

([٣٢٧]) إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانة (القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٧٤ – ٧٥).

([٣٢٨]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٤٧.

([٣٢٩]) مع أن الطبقة الحاكمة في هدية ووشلو كانت إسلامية إلا أن أغلب رعاياها كانوا وثنيين ويتم خصى العبد في وشلو لدرايتهم بهذه العملية الجراحية ثم يحمل العبد إلى هدية حيث يعالج من الجروح وذلك لدرايتهم بعملية العلاج والطب، انظر إبراهيم طرخان، الإسلام والمماليك الإسلامية (القاهرة،١٩٦٠م)، ص٤٠

([٣٣٠]) القلقشندى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٢٧؛ ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٣١٢هـ)، ص ٣٠؛ أبو الفدا، تقويم البلدان (تحقيق رينود ماك كوكين، باريس، ١٤٨٠م)، ص ١٦٠ – ١٦١.

([٣٣١]) ابن حوقل، صورة الأرض (ليدن، ١٩٣٨م)، ج١، ص ١١٠؛ شمس الدين عبد الرحمن السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (دار الجيل، بيروت، ب.ت)، ج٣، ص ١٧٤ – ١٧٧.

([٣٣٢]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

([٣٣٣]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٤٩؛ عبد المنعم ماجد، نظم المماليك، ج١، ص ١٣.

قرب جامع السلطان قايتباي[٣٣٤]، وفي الإسكندرية كان يوجد فندق التتار حيث كانوا يتاجرون في العبيد ويعقدون فيه الصفقات التجارية [٣٣٥]، ثم أنشأ السلطان الغوري سوقا جديدة لبيع الرقيق قرب خان الخليلي في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م. [٣٣٦].

وكانت هذه الأسواق عبارة عن ساحة كبيرة تعرض بها الرقيق من جميع البلاد، وقبل أن تبدأ العملية يجب أن يخطر السلطان حتى يرسل أحد تجاره لشراء ما يريده قبل الناس ثم يتم عرض الرجال والنساء التركيات واليونانيات والحبشيات والجركسيات شبه عراة ويقوم المشترى بفحص العبد أو الجارية للتأكد من سلامته البدنية [٣٣٧].

أما بالنسبة لأسعار الرقيق فقد اختلفت من وقت لآخر، وفقًا لحالة الطلب والعرض وتبعا للظروف السياسية والاقتصادية، ووفقا لجنسية العبد أو الأمة وللصفات التي يتمتع بها العبد فعندما يتزايد عدد الرقيق في الأسواق تقل أسعاره مثلما حدث عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م حينما باع السلطان الظاهر الأسرى الفرنج في أسواق الرقيق بأسعار زهيدة [٣٣٨]. كما اختلفت الأسعار من جنس لآخر فكان أعلى سعر للرقيق المغولي الذي وصل ما بين ١٣٠ – ١٤٠ دوكة، ويليه الجركسي من ١١٠ – ١٢٠ دوكة ثم الإغريقي حوالي ٩٠ دوكة، والألباني والسلافي من ٧٠ – ٨٠ دوكة [٣٣٩] ثم العبيد السود من ٤٠٠ إلى ٣٠٠ دينار [٣٤٠]. ويمكن هنا أن نلقى نظرة على

([٣٣٤]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

([335])Ziada , op cit , p. 213

([٣٣٦]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

([٣٣٧]) جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة (ترجمة مصطفى أحمد العبادى، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠م)، ص ١١٠.

([٣٣٨]) بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٣٨.

([٣٣٩])نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٢٢٤؛ هايد، المرجع السابق، ج٤، ص٥٥؛ سمير الخادم، المرجع السابق، ص ٣٥٦؛ عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٧٢.

([٣٤٠])محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار (تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٠م)، ص ٥٨٥.

تنوع أسعار الرقيق في ذلك العصر مثال ذلك : المنصور قلاوون القبجاقي الأصل الذي بيع بألف دينار فعرف فيما بعد بالألفي[٣٤١]. أما السلطان الأشرف قايتباي فقد تم بيعه بسعر خمسين ديناراً [٣٤٢]، وفي عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م اشترى السلطان الأشرف قايتباي جماعة من المماليك بسعر مائة دينار لكل مملوك وذلك بعد أن منح جلب المماليك لمدة شهر[٣٤٣].

كما اختلف سعر الرقيق الإناث فهناك الجواري المغنيات والوصيفات والمولدات والطاهيات وغيرهن، وكان السعر يتحدد وفقا لمحاسنهن وقدراتهن، فأحيانا يصل سعر الجارية إلى ستة آلاف دينار مثل الجارية المغنية التي اشتراها الأمير بشتاك الناصري [٣٤٤].

أما الأمير تنكز نائب الشام فقد اشترى جارية بتسعين ألف درهم ما يساوى خمسة آلاف دينار ثم أهداها للناصر محمد بن قلاوون[٣٤٥]. بالإضافة إلى أن جنسية الجارية يمكن أن يؤثر في السعر فقد كان لدى السلطان إسماعيل بن الناصر محمد جارية حبشية سوداء اشترتها ضامنة المغاني بأقل من أربعمائة درهم[٣٤٦]، وفي ذلك يذكر الرحالة العرب أن الجواري النوبيات والحبشيات قد تمتعن بالجمال والأصول العريقة ورغم ذلك بلغ سعر الجارية ثلاثمائة دينار، وأحيانا أقل من ذلك[٣٤٧].

وفي عقد تم تحريره في ١٢ صفر ٨٢٢ هجريا /٢٠ مارس ١٤١٩م تم بيع

([٣٤١]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٨٧؛ عبد الله الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين (تحقيق رحاب عبد الحميد، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص ١٠٠.

([٣٤٢])ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣.

([٣٤٣])نفسه، ج٢، ص ٤٥٥.

([٣٤٤]) ابن تغرى بردى، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (تحقيق نبيل عبد العزيز، الهيئة العامة، ١٩٨٥م)، ج٣، ص ٤٦٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٨١.

([٣٤٥]) المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ٢٣١- ٢٣٢؛ ابن حجر، نفسه، ج٢، ص ١٣٣.

([٣٤٦]) المقريزي، نفسه، ج٢ ق٢، ص ٦٧٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٠؛ محمد قنديل البقلي، الطرب في العصر المملوكي (الهيئة العامة، ١٩٨٤م)، ص ٤٥.

([٣٤٧]) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٣٠؛ الحميري، المصدر السابق، ص ٥٨٥.

جارية نوبية مسيحية كانت لدى الكاهن القبطي يوحنا بالإسكندرية إلى قنصل البندقية بمبلغ ٢٧ دوكة فقط يحسب منها ١٣.٥ دوكة تكاليف السفر ومصاريف المعيشة[٣٤٨]. كذلك أورد المقريزي في أحداث عام ٧٣٨ هـ /١٧٣٨م أنه تم بيع إحدى عشرة جارية بمبلغ يتراوح ما بين ثمانية آلاف درهم إلى أربعة آلاف درهم [٣٤٩].

وتبقى لنا الكلمة الأخيرة عن تاجر الرقيق الذي كان أساس وجود هذه الفئة في المجتمع المصري، ويطلق عليه اسم الخواجة ويقصد به التاجر العجمي [٣٥٠]. المسئول عن جلب الرقيق الأبيض، ونظرا للحاجة الملحة لهذا التاجر فقد كان السلطان يستقبله استقبالا حافلا مثل كبار الشخصيات، ويبالغ في تكريمه ويمنحه الخلع والهدايا والأموال وإعداد ما يلزمه من لحوم وعليق للدواب حتى ولو باع رأسا واحدا من الرقيق [٣٥١]. وهذا يدل على مدى الاهتمام البالغ بالعبيد والجواري ويدل أيضا على أن الرقيق كانوا عنصرا أساسيا في المجتمع المصري في ذلك العصر.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أسماء بعض التجار المشهورين على سبيل المثال :-

- الخواجا مجد الدين السلامى تاجر الناصر محمد بن قلاوون[٣٥٢].
- الخواجا محمود شاه الذي جلب المؤيد شيخ وقايتباي [٣٥٣].
- الخواجا علاء الدين الذي جلب الأشرف إينال العلائي[٣٥٤].

([٣٤٨]) صبحي لبيب، الفندق ظاهرة اقتصادية، ص ٢٩٨.

([٣٤٩]) المقريزي، السلوك، ج٢ق٢، ص ٤٤٢.

([٣٥٠]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٦، ص ١٣؛ عبد المنعم ماجد، نظم المماليك، ج٢، ص١١ – ١٢؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية (القاهرة، ١٩٨٩م)، ص ٢٨٩.

([٣٥١]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٧١، ٣٤٨؛ السلوك، ج٢ ق١، ص ٢٤١؛ القلقشندى، نفسه، ج٤، ص ١٣٨ – ١٣٩؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٣٥ – ١٣٦.

([٣٥٢]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٦٩؛ السلوك، ج٢ ق١، ص ٢٤١.

([٣٥٣]) ابن تغرى بردى، مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة (تحقيق محمد بن عبد العزيز، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م)، ج٢، ص ١٨٥؛ القرماني، المصدر السابق، ص ٢١٨؛ محمد على الشوكانى، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع الهجري (دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٨ م)، ج١،ص٣٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣،ص٣.

([٣٥٤]) ابن تغرى بردى، نفسه، ج٢، ص ١٦٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٤٢٤.

- الخواجا عثمان بن مسافر الذي باع الظاهر برقون [٣٥٥].
- الخواجا كذلك الذي جلب الظاهر جقمق[٣٥٦].
- الخواجا علاء الدين السيواس الذي جلب الأمير تنكز الحسامي[٣٥٧].

موقف الدولة من الجواسيس الأجانب :

شهد العصر المملوكي انتشار الجواسيس الأجانب في الدولة المملوكية؛ وذلك بسبب العلاقات العدائية بين المماليك وبعض الدول الأجنبية، فمن الطبيعي أن ترسل هذه الدول جواسيسها وعيونها للاستطلاع، ومعرفة ما يدور داخل الأراضي المصرية والشامية من أحداث وظروف سياسية واقتصادية واجتماعية لعلها تستفيد من هذه الأخبار في توجيه ضربة لمصر، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل حيث لم يسمح المماليك لأحد بالتدخل في شئون مصر الداخلية بدون رقابة فأنشئوا نظاما للمراقبة الداخلية والخارجية سمى جهاز الجاسوسية، ومهمته هي التجسس على الأعداء والقبض على جواسيسهم والتخلص منهم أو الاستفادة منهم.

وقد ظل هذا الجهاز يعمل بكفاءة ونشاط دائم منذ بداية نشأته وحتى بعد توقيع الصلح مع المغول، ولم يتوقف عن دوره تجاه الصليبيين واستمر يقوم بدوره حتى بعد سقوط عكا إلى نهاية الدولة المملوكية حيث أصابه الضعف والتدهور مما ساعد العثمانيين على الاستيلاء على مصر وقد أمكننا التعرف على هؤلاء الجواسيس من بين ثنايا المعلومات الواردة في بعض المصادر المملوكية المعاصرة فوجدنا منهم جواسيس مدربين أو رحالة مسافرين أو سفراء وتجار وقناصل فهؤلاء جميعا كانوا بمثابة عيون لدولهم داخل الدولة المملوكية.

(١) الجواسيس المدربين :

دربت بعض الدول الأجنبية أشخاصا على التجسس داخل الدولة المملوكية مثلما

([٣٥٥]) ابن تغرى بردى، نفسه، ص ٩٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٣١٩.

([٣٥٦]) ابن إياس، نفسه، ج٢، ص ٢٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٧١؛ ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (تحقيق وليام بير، كاليفورنيا، ١٩٣٠م)، ج٢، ص ٣٤٩.

([٣٥٧]) الشوكانى، المصدر السابق، ج١، ص ١١٦؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص ٦٧.

حدث في عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م عندما قدم ثلاثة جواسيس تابعين للخان المغولي فاخترقوا خيمة الظاهر بيبرس راغبين في قتله ولكنهم فشلوا في إنجاز المهمة، وتم القبض عليهم ولكن نظرا لجرأتهم الشديدة وشجاعتهم استمالهم إليه وأنعم عليهم بالمال، واستغلهم لصالحه في التجسس على أعدائه[٣٥٨]، وبذلك استطاع استغلال هذه الحادثة لحماية الدولة ولكنها حادثة فريدة فغالبا ما كان يتم التخلص من الجواسيس نهائيا مثلما فعل السلطان الظاهر بيبرس مع جواسيس المغول الذين أرسلهم هولاكو في نفس العام إلى الأمراء المتمردين في بلاد الشام للتعاون معا ضد السلطان المملوكي فأمر بالقبض عليهم وأعدمهم [٣٥٩]. وفي عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م ورد الخبر إلى السلطان الظاهر بيبرس بوصول جاسوس إلي مدينة ألبيرة فأمر الظاهر عماله بالقبض عليه، وعندما أحضروه إليه أنكر أنه جاسوسا، ولكن الظاهر بيبرس ظل يعذبه حتى اعترف أنه جاسوس من عند عدوه المغولي[٣٦٠].

بالإضافة إلى ذلك كان هناك جواسيس فرنج حاولوا التسلل داخل الأراضي المصرية ففي عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م قبضت السلطات المملوكية على أحد الجواسيس الصليبيين في بلاد الشام يتجسس لصالح حاكم صافيتا – مقاطعة تابعة لنيابة طرابلس الشام – فأمر السلطان بيبرس بإعدامه[٣٦١]، كما شهد عصر المنصور قلاوون عمليات عمليات القبض على الجواسيس الأجانب ففي عام ٦٨١هـ / ١٢٨٢م خرج أحد كبار الأمراء من الكرج لزيارة القدس الشريف سرا وكان هذا الشخص متحالفا مع المغول فاستطاع جهاز التجسس المملوكي مراقبته وأخبر السلطان بكل تحركاته ثم قبض عليه بالقدس ثم أرسله إلي السلطان بالقاهرة، وحبس في سجن القلعة [٣٦٢].

([358])P.Amitai , Mongols And mamluks (1260 – 1281) , (Cambridge , 1995) , p. 148.

([٣٥٩]) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٩٩؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٠٥.

([٣٦٠]) ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ٢٧٣؛ شافع بن على، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية (تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م)، ص ١١٧؛

Amitai , op.cit , p. 155.

([٣٦١]) ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ٢٥٢.

([٣٦٢]) ابن بهادر، المصدر السابق، ورقة ٣٣٤؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٢٣؛

ويبدو أن حالة الضعف والتدهور الداخلي كانت فرصة مناسبة لانتشار الجواسيس الأجانب في البلاد بصورة واضحة وبدون خوف من السلطات الحاكمة وذلك في عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م قبل غزو القبارصة للإسكندرية حيث أرسل الملك القبرصي جواسيسه وعيونه لدراسة المدنية ومعرفة حصونها ومواقع الضعف والقوة فيها تمهيدا لغزوها.

وقد أمدتنا بعض المصادر بمعلومات هامة عن هؤلاء الجواسيس وكيف تم كشفهم والقبض عليهم حيث تم القبض على شخص داخل خندق سوق الإسكندرية وهو يقيسه ولكنه لم يقر بشيء رغم تعذيب بإشعال النار في أصابعه ثم سجن وتم التحفظ عليه [٣٦٣]، ثم شوهد شخص أجنبي على سور الإسكندرية يقيسه بحبل فقبض عليه فأشهر إسلامه وتم إخلاء سبيله ولكن ثبت فعلا أنه كان جاسوسا لأن القبارصة عندما دخلوا المدينة كان دخولهم من نفس المكان الذي تدلى منه الحبل[٣٦٤].

كما وجد ناحية أبى قير زاهد تبارك به الناس ثم طلب سمكا وأشعل النار على الساحل لشوي السمك ثم رحل وبعد قليل جاء مركب قبرص عند نفس المكان الذي كان فيه الزاهد ونهبوه فأيقن الناس أنه كان جاسوسا وأن إشعال النيران كانت طريقة لإرشاد العدو[٣٦٥].

كما عثر على سقاء أشقر وأزرق العينين مستعرب فقبضوا عليه فذكر أنه قبرصي وأسلم وتزوج من مسلمة في القاهرة فأودعوه بالسجن، وتعرض للضرب والتعذيب حتى اعترف أنه جاسوس من جملة الجواسيس المنتشرين في مصر والشام، كذلك وجد عدد من الجواسيس الفرنج في القاهرة متنكرين في زى النساء فقبض عليهم[٣٦٦].

المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٧١٠.

([٣٦٣]) السيد عبد العزيز سالم،احمد مختار العبادى، تاريخ البحرية المصرية (الإسكندرية،١٩٧٣م)،ص ٥٩٣.

([٣٦٤]) نفس المرجع ونفس الصفحة.

([٣٦٥]) النويرى السكندرى، المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٧ – ١٠٨؛ المقريزي، السلوك، ج٣ق١، ص ٤١٣ – ٤٢٢.

([٣٦٦]) أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية، ص ٥٩٣.

أما ملك قبرص نفسه فقد نزل مدينة الإسكندرية كأحد التجار وسار وتجول في شوارعها مع شمس الدين غراب كاتب الديوان بالإسكندرية، وبذلك تعرف على أحوال المدينة[٣٦٧]. أضف إلي ذلك ما أورده الكتب والفارس الصليبي المعاصر جيوم دي ماشو حيث ذكر أن شخصا يدعى برسفال الكولونى كان في استطاعته التجول في المدينة بحرية تامة مما ساعده على الإحاطة بظروف المدينة ومداخلها ومخارجها، وأبلغ ذلك كله للملك القبرصي[٣٦٨].

(٣) التجار والقناصل الأجانب :-

لاشك أن التجار والقناصل كانوا بمثابة خطر داخلى على الدولة لأنهم أكثر العناصر الأجنبية ترددا على الأسواق المصرية والشامية وأكثر استقراراً في مصر مما جعل لبعض الشخصيات الأجنبية صلة مباشرة بالسلاطين، فمنذ الدولة الأيوبية كان التاجر كليام الجنوي صديقا للسلطان الملك العادل الأيوبي حيث أهداه هدايا قيمة للغاية فأعجب بها السلطان، وأمر بملازمته في القصر، ولكنه كان عينا للفرنج يطالعهم بأحوال الديار المصرية فقيل للعادل الأيوبي ذلك ولكنه لم يصغ إليهم [٣٦٩]. كما كان بعض هؤلاء التجار المقيمين في فنادقهم ونزلهم بمثابة عيون وجواسيس لبلادهم فيطلعون ملوكهم بمواطن القوة والضعف في الدولة تمهيدا لإعداد خطة للقضاء على مصر وحكامها[٣٧٠]. ومن هؤلاء التجار التاجر بيلوتي الكريتي الذي قضى في مصر والشام خمسة وثلاثين عاما تجول خلال تلك الفترة بين الموانئ والمدن المختلفة في أراضى الدولة المملوكية ثم عاد إلي روما حيث قابل البابا وقدم له كتابا يحتوى على معلومات هامة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي [٣٧١].

([٣٦٧]) النويرى السكندرى، المصدر السابق، ج٢، ص ١١٠ – ١١١.

([٣٦٨]) أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية، ص ٥٩٤.

([٣٦٩]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ١، ص١٧٣.

([٣٧٠]) أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١١؛ مصطفى الكناني، المرجع السابق، ص ١٢٦.

([٣٧١]) أحمد دراج، نفسه؛ Atiya (S. A) , the latter crusades , p 208. 211.

ونخلص مما سبق أن الدولة المملوكية قد اتبعت أساليب متعددة ومختلفة عند تعاملها مع الجاليات الأجنبية المقيمة في أراضيها، وذلك طبقا للفئة التي تتعامل معها حيث وجد في مصر الأجانب الأحرار والعبيد والأسرى والجواسيس. ونظرا لوجودهم الدائم في البلاد فقد كانت لهم حياة اجتماعية خاصة بهم وصفات وطبيعة مختلفة عن المجتمع المصري وهذا ما سنوضحه في الفصل التالي حيث يتناول الحياة الاجتماعية للجاليات الأجنبية والأدوار الهامة التي قام بها الأجانب في مصر.